بسم الله الرحمن الرحيم

** " الحوادث والفتن " .. و (آفات النفوس)؟!

زمن الفتن والتغيرات من أشد الأمور وقعا على الناس حتى يحتار الحليم في أمره، ويلتبس على العاقل شأنه - إلا من رحم الله -، وذلك لعظم شأن النوازل والحوادث، حتى قيل: "عند الحوادث والفتن تذهل النفوس عن النصوص "!.

ولذا حري بالعبد المسلم عند ذلك أن يلزم السنة (اعتقادا وحالا وقولا) لما لذلك من آثار طيبة من أجلها تهذيب النفوس، وتحقق استقرارها، وما يستلزم ذلك من الحياة الطيبة، والثبات والطمأنينة، بحيث لا تبصر من هذه النفوس المطمئنة عوجا، ولا تلحظ تناقضا أو تحولا، بل هي في منأى عن ذلك كله، وإن عرض شيء منه فسرعان ما يتلاشى ويضمحل [1].

يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - :" وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده (بل هم أعظم الناس صبرا على ذلك وإن امتحنوا بأنواع المحن وفتنوا بأنواع الفتن)!! وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين

وغيرهم من الأئمة"[2].

ففي خضم ما جرى ويجري من أحداث وفتن في العالم الإسلامي، ومن جراء ما يرى المرء في خصوص ذلك من تصرفات ومسالك، ومن خلال ما يُسمع في ساحته من قالات يتنزه عنها الناسك، يفقه المرء ما للأحداث والحوادث من أثر بليغ على كثير من النفوس عموما مما يَقض مضجع السالك، (ولا أبرئ نفسي)، فنعوذ بالله من المهالك.

فالتفلت عن السنة - خاصة في زمن الفتنة - في كبير أو صغير [3]، والغفلة عن قواعد أهل التحرير، والانحراف عن الضوابط المرعية وحسن التعبير[4]، هو أمر مرير لعلاقته بخبايا النفوس المريضة و لكونه من آفات الخروج عن الهدي النبوي والانحراف في المسير، و لأنه من نتائج عدم الضبط وسوء التقدير.

فآفات النفوس ودسائسها لا حصر لها، وما يعتري النفوس من اعوجاج وتلون واضطراب يتعذر استيعابه، وكما قال أحد الشيوخ للإمام ابن القيم - رحمه الله - :" آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك " [5].

واعلم – كتقعيد شرعي عام يا رعاك الله - أن آفات النفوس لها قرائن تبدو على الظاهر فإن " الإيمان يُعلم من الرجل، كما يعلم سائر أحوال قلبه، من موالاته، ومعاداته، وفرحه، وغضبه، وجوعه، وعطشه، وغير ذلك، فإن هذه الأمور لها لوازم ظاهرة، و(الأمور الظاهرة تستلزم أمورا باطنة، وهذا أمر يعرفه الناس فيمن جربوه وامتحنوه)!! " 6.

فالحذر الحذر – خاصة إذا كنت تُنسب للسنة (؟!) - عند حلول الحوادث والفتنة من الجري وراء التزيين وعدم الحرص على الدليل، وترك الطرائق الصحيحة للاستدلال والتدليل، فإن أساس ذلك - إذا لم يكن هناك نقص في مراعاة فقه التنزيل - : (آفة في النفس)! ترجع إلى موافقة الهوى والخروج عن التأصيل ولذا فـ " من اعتاد الجري على أقوال لا يبالي دل عليها دليل صحيح أو ضعيف، أو لم يدل (يخمد ذهنه)= ولا ينهض بطلب الرقي، والاستزادة في قوة الفكر والذهن " 7.

ومن آفات النفوس التي تُفضح زمن التغيرات: (آفة العجب)! والتي تتمثل في إعجاب كل ذي رأي برأيه، " ألا ترى أن الذي يُعظم نفسه بالباطل: يريد أن ينصر كل ما قاله، ولو كان خطأ (؟!) " 8 ، ورضي الله عن علي لما قال :" الإعجاب آفة الألباء " 9.

. ويتفرع عنه عدم أخذ الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار من باب (

الاعتقاد ثم الاستدلال)؟! ، وهو من سمات أهل البدع فتنبه وتجنب الاعتلال كما قرره الإمام الشاطبي - رحمه الله - بقوله :" ولذلك سمي أهل البدع: أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، (بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك) " 10.

ومن آفات إعجاب المرء بنفسه: (تطلعه إلى الصدارة)!، و(شغفه بالريادة)!، و(محبته للرئاسة)!، كما قال أحد السلف:" ولا تر المعجب إلا طالبا للرئاسة " 11.

ورحمة الله على من قال :

حب الرئاسة داء لا دواء له **** وقل ما تجد الراضين بالقسم

ومن أعظم صورها (حب الرئاسة في العلم) قبل الوصول إلى مرتبتها على وفق السَنن المعتاد بل بمجرد الوهم 12 وقد قال يزيد بن هارون - رحمه الله - :" من طلب الرئاسة في غير أوانها حرمه الله إياها في أوانها " 13.

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: " يعسر خروج حب الرئاسة

من القلب إذا انفرد، حتى قالوا: (حب الرئاسة آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين)! فكيف إذا انضاف إليه من الهوى من الأصل، وانضاف إلى هذين الأمرين دليل -في ظنه- شرعي على صحة ما ذهب إليه (؟!) فيتمكن الهوى من القلب تمكنا لا يمكن في العادة الانفكاك عنه، وجرى منه مجرى الكلب من صاحبه" 14.

ومن نتائج ذلك أن يُعرض في رياض العلم الغرائب، وصدق من قال " إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب "15(!!)

فـ "الواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له إن شاء الله " 16.

وعنده يَخشى المرء من آفة أخرى من آفات النفوس وهي (داء الكبر و حب الظهور الذي يقصم الظهور)!، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام - رحمه الله - لما أورد مفاسد البدعة حيث قال:" مسارقة الطبع إلى الانحلال من ربقة الاتباع، وفوات سلوك الصراط المستقيم، وذلك أن النفس فيها نوع من الكبر، فتحب أن تخرج من العبودية والاتباع حسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله - : (ما ترك أحد شيئا من السنة إلا لكبر في نفسه)!! " 17.

ومن الآفات التي تدل على علة في النفس عند حلول الحوادث خاصة : (آفة الاستعجال)**!** ، حيث تظهر العجلة في الأقوال والأفعال والتصرفات إلا من رحم رب الأرض والسماوات، مما يثمر : (الاستهانة بفقه المآلات)**؟!**، والغفلة عن أنه " مجال للمجتهد صعب المورد " [18] إذا لم يُحكّم أمره صارت البليات..

ومن صور هذه الآفة: الاستعجال في تقدير المصالح الراجحات، فالخطأ زاد العّجول ..، فلم العجلة و" التحقيق أن العمل بالمصلحة المرسلة أمر يجب فيه (التحفظ وغاية الحذر) [19] حتى يتحقق صحة المصلحة وعدم معارضتها لمصلحة أرجح منها أو مفسدة أرجح منها أو مساوية لها، وعدم تأديتها إلى مفسدة في ثاني حال (**؟!**) " [20].

نعم؛ هناك فرق بين المبادرة والاستعجال [21]، إلا أنه لا ينبغي أن يُختلف في أن فتح باب المبادرة دون قيد ولا شرط ليس محله عند (تسارع الأحداث وتصارعها) [22] **!!** .

فاعلم - علمني الله وإياك - أن من طبيعة البشر التي جبلوا عليها: الاستعجال، يقول تعالى :(خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون)..

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآية .. وتأمل

وبالعلم تجمل :" والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك ، فقال الله تعالى: { خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } ؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي } أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني: { فَلا تَسْتَعْجِلُونِ } " [23].

هذه إشارات لبعض آفات النفوس أحببت التنبيه عليها ونُصح نفسي بها أولا خرجت مخرج التذكير والعظات عند حلول الفتن والشبهات، راجيا من الله تعالى أن يجنبنا الفتن المدلهمات، وأن يعيننا على التبصر في الأمور كما هي، وأن يوفقنا للأخذ بالضوابط الصحيحات، والقواعد المحكمات، دون استعجال ولا توان عن خدمة شرع رب الأرض والسماوات.

....

1. هذا هو المقصود بما ذكره العلامة السعدي - رحمه الله - لما قال :" الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق وعلى الأمور اليقينية، ولكن سرعان ما تضمحل وتتلاشى " القواعد الحسان – ملحق بتيسير الكريم الرحمن 5/600.

2. الفتاوي لابن تيمية - رحمه الله - 4/50.

3. قال الإمام أبو محمد الحسن بن علي البربهاري - رحمه الله -:" واحذر صغار المحدثات، ف (إن صغير البدع يعود حتى يصير كبيرا)؟!، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة، كان أولها صغيرا يشبه الحق فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعظمت وصارت دينا يُدان بها، فخالف الصراط المستقيم " شرح السنة ص: 66، وانظر مجموع الفتاوي للإمام ابن تيمية - رحمه الله - 22/306، والسلسة الصحيحة 5/11 للشيخ الألباني - رحمه الله - عند الحديث رقم: 2005.

4. قال شيخ الإسلام - رحمه الله -:" معرفة أصول الأشياء ومبادئها ومعرفة الدين وأصله وأصل ما تولد فيه من أعظم العلوم نفعا، إذ المرء ما لم يحط علما بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة " الفتاوي 10/368.

5. المدراج 2/314.

6. منهاج السنة لابن تيمية - رحمه الله - 8/335.

7. المناظرة الفقهية للعلامة السعدي - رحمه الله - ص: 292.

8. الفتاوي لابن تيمية - رحمه الله - 10/292.

9. جامع بيان العلم 1/571.

10. الاعتصام للإمام الشاطبي - رحمه الله - 2/176، وصدق العلامة الخضر حسين - رحمه الله - لما قال:" الآراء الفاسدة، والشبه المغوية، تربي في النفوس الضعيفة أذواقا سقيمة " رسائل الإصلاح 1/99.

11. جامع بيان العلم 1/570.

12. وانظر غير مأمور عند هذا الأمر ما أورده الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الروح ص: 252 تحت فصل: " الفرق بين حب الرئاسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله " .

13. تعظيم الفتيا لابن الجوزي - رحمه الله - ص: 132 تحقيق الشيخ العلامة مشهور حسن - حفظه الله .

14. الاعتصام 1/113 بتصرف يسير.

15. هذه مقوله الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في حق العلامة الكرماني - رحمه الله - لما تحدث عن مسألة حديثية أغرب فيها (؟!)، أنظر الفتح 3/564.

16. من قالات الإمام الشافعي - رحمه الله - في كتابه الرسالة 41.

17. اقتضاء الصراط المستقيم 2/611-612.

18. قالها الإمام الشاطبي - رحمه الله - في الموافقات 5/178.

19. إذ الاستصلاح يحتاج :" إلى (مزيد الاحتياط)! في توخي المصلحة، و(شدة الحذر)! من غلبة الأهواء، لأن الأهواء كثيرا ما تزيِّن المفسدة فتُرى مصلحة، وكثيرا ما يُغترُّ بما ضرره أكبر من نفعه " مصادر التشريع الإسلامي لخلاف 85.

20. كما قال العلامة الشنقيطي - رحمه الله - في رسالته " المصالح المرسلة " ص: 154.

21. وانظر غير مأمور ما أورده الإمام ابن القيم - رحمه الله - في

خصوص ذلك في كتابه الروح ص: 258 تحت فصل: "الفرق بين المبادرة والعجلة ".

22. وعليه فمما يستدعي التوقي في الأحكام عند ذلك خاصة استحضار أن " الواقع الذي هو مجال الفقه أصبح عبئا مرهقا للفقيه ولجهده الذي يبدله لفهمه واستيعابه بسبب ما حدث لهذا الواقع من تغيرات سريعة وتحولات تتجاوز في أحيان كثيرة قدرة الفكر على ملاحقتها فضلا عن مواكبتها. لقد كان الواقع خلال قرون متطاولة بسيطا فأصبح معقدا متشابك الجوانب مرتبطا بخلفيات سابقة وظواهر مجادة وآثار لاحقة " نحو فقه سديد لواقع أمتنا 1/355 – حقيقة فقه الواقع – لعبد الرحمن الزنيدي.

23. تفسير القرآن العظيم 4/563.

كتبه :

أبو أويس رشيد بن أحمد الإدريسي الحسني - عامله الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي -